

## الشاب الدّاخل

استمر الخلفاء يحكمون القسم الأعظم من المملكة الإسلامية ستة قرون، وكان هذا الحكم فى أول الأمر قوياً واسع السلطة، فكان الخليفة يعين أمراء الولايات ويعزلهم إن شاء ومتى شاء من إسبانيا إلى حدود الهند.

ولكن المملكة وقد امتدت رقعتها كانت أوسع من أن تجتمع أمداً طويلاً حول محور واحد، لذلك أخذ عدد من الأمراء فى الفينة بعد الفينة، يعمل مستقلاً مع إظهار الولاء الأكيد للخليفة، ومنحه كل ما يجب من تشرىف وتبجيل إلا الطاعة، ودار الزمن دوراته ففقد الخلفاء هذا التشرىف وذلك التبجيل، ونبتت سلالات من الأمراء انتحلت مذاهب دينية مبتدعة، فجدت سلطة الخليفة الدينية وعدته وعدت أبناءه من الغاصبين، ثم جاء زمن كانت سلطة الخلفاء الزمنية فيه أشبه بسلطة البابا برومة فى الضعف والخور، حتى إن حراسهم المرتزقين الذين استأجروهم لحمايتهم من أعدائهم كانوا يحبسونهم أحياناً فى قصورهم. وقد وقع شىء من ذلك بعد نحو ثلاثمائة سنة من ابتداء الخلافة، أما فيما بعد ذلك، فكان الخلفاء رمزاً قليل القيمة، يلعب به كبار أمراء المملكة كيف شاءوا، وكانوا لا ينالون شيئاً من الحفاوة إلا يوم توليتهم، ثم محا المغول فى القرن

الثالث عشر الخلافة بآسيا، ولم يعد للمسلمين اليوم خليفة بالمعنى الصحيح، على الرغم من تمسك سلطان تركيا بهذا اللقب<sup>(١)</sup>.

وكانت الأندلس أول ولاية نفضت عنها سلطة الخليفة، ولكي نفهم هذا يجب أن نذكر أن الخلفاء لم يتبع بعضهم بعضاً في سلالة متصلة الوراثة، فبعد الخلفاء الراشدين: «أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلي» الذين نالوا الخلافة بقليل أو كثير من رغبة الأمة واختيارها - نصب أهل الشام معاوية خليفة بدمشق، فكان من نسله الخلفاء الأمويون، وكان عددهم أربعة عشر، حكموا من سنة ٦٦١ م / ٤١ هـ إلى سنة ٧٥٠ م / ١٣٢ هـ ثم أسقط السفاح دولتهم، فكان أول العباسيين المنسوبين إلى جدهم العباس عم النبي ﷺ. ونقل العباسيون مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد، واستمرت خلافتهم حتى أسقطها المغول سنة ١٢٥٨ م / ٦٥٦ هـ.

وكان عبد الرحمن الداخل من الأسرة الأموية المغلوبة التي طاردها العباسيون واستأصلوا شأفة أبنائها، وتتبعوهم في كل نواحي الأرض يذبحونهم بلا رحمة ولا هوادة، ففر عبد الرحمن<sup>(٢)</sup> كما فر غيره، ولكنه كان سعيد الطالع، إذ وصل إلى شواطئ الفرات سالماً بعد جهد وأين، وبينما كان ذات يوم جالسا في خيمته يرقب

(١) المؤلف يكتب حوالى سنة ١٨٨٨ م / ١٣٠٥ هـ.

(٢) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ولد سنة ١١٣ هـ بدير حنا من أعمال

ابنه الصغير وهو يلعب فى فنائها، جرى إليه الصبى خائفاً مذعوراً، فخرج عبد الرحمن ليتعرف سبب خوفه، فرأى القرية فى اضطراب، ورأى العلم العباسى الأسود يرفرف فى الأفق، فاجتذب ابنه فى عجلة وفر من القرية، ووصل إلى النهر فقذف بنفسه ومن معه فيه، واقترب الأعداء إلى شاطئ النهر وصاحوا بهم أن لا بأس عليكم فلن يصيبكم منا أذى، فصدقهم أخ له صغير كان معه وكان قد أجهده السباحة، فذهب إليهم فاحتزوا رأسه فى التو والحين، ولكن عبد الرحمن طفق يجاهد حاملاً ابنه ووراءه خادمه بدر حتى وصل إلى الشاطئ الآخر، فلما وضعت أقدامهم على اليابسة أخذوا يسيرون ليلاً ونهاراً حتى بلغوا إفريقية حيث تبعه بقية أهله هناك، وحيث وجد ذلك الناجى الوحيد من الأمراء الأمويين وقتاً للتفكير فيما يكون فى غده.

كانت سنة إحدى وعشرين سنة، وكان كبير الأمل طموحاً، وكان يتحلى إلى سداد الرأى بامتداد القامة، والوسامة، والقوة والشجاعة، ويضيف بعض مؤرخى العرب إلى هذه الصفات ما لا نحب أن يتصف به بطلنا، كالعور، والخشم<sup>(١)</sup>. وكان قومه يتحبنون له ملكاً بالمغرب، ويرون فيه علامات لذلك<sup>(٢)</sup>، وهو الآن على الرغم

(١) الخشم: فقدان حاسة الشم.

(٢) فى نفع الطيب: دخل عبد الرحمن يوماً على جده هشام وعنده أخوه مسلمة، وكان عبد الرحمن صبيّاً فأمر هشام أن ينحى عنه، فقال له مسلمة: دعه يا أمير المؤمنين هذا صاحب بنى أمية ووزرهم عند زوال ملكهم فاستوص به خيراً.

مما أصاب قومه من الهلاك، قوى العزيمة غير مستكين. وقد اتجه نظره إلى إفريقية أولاً، لأنه رأى أن قوة العباسيين لم تدع له فرصة فى الشرق<sup>(١)</sup>، فلما بلغها بقى سنين هائماً على سواحل البربر، تحقق فى خلالها أنه لا يستطيع التغلب على أمير إفريقية<sup>(٢)</sup>، وأن ثوار البربر فى المغرب لن يتخلوا عن الاستقلال الجديد الذى نالوه ليحفظوا بالشرف الأجوف بتولية أحد الأمويين عليهم. عند ذلك حول نظره إلى الأندلس؛ حيث كان الصراع الدائم بين القبائل والعشائر المتنافسة جديراً بأن يفتح باباً لعبقرى مثله، يؤيده النسب الأموى وتزكيه الهمة العالية، لذلك أرسل خادمه إلى زعماء حزب الشام بإسبانيا، وكان بينهم كثير من موالى الأمويين الذين يوجب عليهم الشرف العربى نصر من ينتمى إلى ساداتهم الأولين، ورأى بدر من هؤلاء الزعماء رغبة فى استقبال الأمير الشاب بعد أن فاضوا القبائل المعادية من اليمن فوعدت بنصرته، عندئذ عاد بدر إلى إفريقية.

وكان عبد الرحمن يضى على سيف البحر حينما رأى السفينة التى تحمل خير الأخبار مقبلة إليه، وكان يميل إلى الأخذ بالقال

---

(١) ولأن أخواله كانوا من برايرة طرابلس.

(٢) هو عبد الرحمن بن حبيب الذى فر من الأندلس بعد دخول ابن الخطار، ووصل إلى المغرب وانتزع لنفسه إمارة به، وهو الذى قتل ابنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما دخل إفريقية.

كجميع المشاركة الذين طبعوا على التفاؤل والتطير، واتفق أن أول رسول أندلسي قدم مع بدر كان اسمه أبا غالب تمامًا. فلما عرف عبد الرحمن اسمه صاح: «تم أمرنا وغلبنا بحول الله وقوته» ثم نزل إلى السفينة فأبحرت به إلى إسبانيا في سبتمبر سنة ٧٥٥ م / ١٣٨ هـ وكان دخول هذا الناجي الفذ من بين السلالة الأموية الأندلس أشبه بصفحة من قصة عجيبة، وهو يشبه وصول الشاب الذي ادعى ملك إنجلترا إلى أسكتلندة سنة ١٧٤٥ م.

وانتشر خبر دخوله الأندلس انتشار النار في الهشيم، فتزاحم عليه المناصرون القدماء للدولة الأموية يقدمون الطاعة، ووضع أبناء موالى الأمويين أنفسهم تحت أمره، وتأثرت قبائل اليمن التي لم تكن تشعر بانعطاف نحو الأمير الشاب، بحماسة أنصاره، فانتقلت إليها العدوى، وعقدت الخناصر على البر بوعداها، وتواثقت على نصرته.

ورأى أمير الأندلس معظم جنوده وقد انصرف عنه، فاضطر إلى انتظار جيش جديد، على أن الأمطار في هذا الفصل من السنة جعلت القتال مستحيلا. فترك ذلك لعبد الرحمن متسعا من الزمن يجمع فيه جنوده، ويدبر أمره.

بدأ الصدام شديداً في ربيع السنة التالية، واستقبل عبد الرحمن بحماسة وترحاب، في أرشذونة وإشبيلية، فأعد جيشه للهجوم على قرطبة، وزحف الأمير يوسف بن عبد الرحمن الفهري لوقف

تقدمه، ولكن الوادى الكبير كان فياضاً بماء المطر، فتسابق الجيشان على كلا شاطئيه، أيهما يكون أسبق وصولاً إلى قرطبة<sup>(١)</sup>، ولكن عبد الرحمن خدع يوسف بحيلة لا تليق بالأبطال، فطلب منه أن يتركه يجتاز النهر بعد أن هبط ماؤه ليعقد معه صلحاً، فلما وصل إلى الشاطئ الآخر انقض على جيش يوسف بعد أن وثق الأمير بوعدده، فتغلب عليه ودخل قرطبة ظافراً. وكان له من الهيبة والشهامة والنخوة، ما منع الجند من النهب والتخريب. وحمل نساء الأمير المهزوم وأسرتيه إلى مأمونها، ولم تمض السنة إلا وهو مسيطر على جميع ما احتازه المسلمون من أرض إسبانيا، وبهذا الإقدام النادر وبهمة عبد الرحمن قدر للدولة الأموية بقرطبة أن تستمر فى الحكم نحو ثلاثة قرون.

ولم يثبت أمير قرطبة الجديد فوق عرشه بغير جهاد أو نصب، فإن الذى أجلسه على العرش وذل سبيله إليه لم يكن إلا حزباً صغيراً من الأحزاب الكثيرة التى اقتسمت المملكة فيما بينها، غير أن عبد الرحمن كان أكثر استعداداً وأوسع حيلة من سواه للاحتفاظ بملكه بين هذه العناصر المضطربة المشاغبة، فإنه كان سريعاً عند الخطب، قوى العزيمة، غير متحرج إذا صمم، شديد البطش، لا يرمى إلا ولا ذمة، سياسياً داهية، أعد لكل مفاجأة عدتها، وكثيراً ما دهمته الحوادث فرأت فيه بطلا هماماً.

(١) كان يوسف بالشاطئ الأيمن الذى تقع عليه قرطبة.

ولم يستقر بعرشه طويلاً حتى اجتاز العلاء بن مغيث من إفريقية ليرفع العلم العباسي بإسبانيا، ولم ينزل برجاله في ولاية باجة حتى اتخذ له مناصرين من بين الساخطين المستعدين دائماً للانضمام إلى من يدعوهم لغنم جديد، فحاصر عبد الرحمن شهرين في قرمونة، وكان هذا الحصار شديداً الخطر، لأن كل يوم يمر فيه كان يحمل إلى الأعداء مدداً جديداً. ولكن عبد الرحمن كان عبقرياً، فما كاد يسمع أن الأعداء خففوا بعض التخفيف من مراقبتهم وحذرهم حتى جمع سبعمائة من أشجع أصحابه، ثم أوقد ناراً عظيمة وصاح فيهم «إننا الآن بين حالين: فإما إلى نصر مؤزر وإما إلى موت محقق» ثم ألقى بقراب سيفه في اللهب. وتأثر رجاله، فألقوا بقربهم في النار معه، معلنين أنهم لن يضعوا سيوفهم في أعمادها حتى يفك حصارهم ويصبحوا أحراراً، ثم انطلقوا خلف قائدهم؛ وانقضوا على محاصريهم بالأسنان والأظافر، فمزق الجيش العباسي وذهب بدءاً<sup>(١)</sup>.

وأمر عبد الرحمن في إحدى نوبات قسوته التي شوهدت من سيرته، أن توضع رءوس قوادهم في جوالق، وأن يعلق بكل أذن صك يرقم عليه اسم صاحبه، وأن يبعث بهذا الجوالق مع أحد الحجاج ليوصله إلى الخليفة المنصور نفسه، وذهب الحاج وبلغ

---

(١) لقي عبد الرحمن العلاء بالقرب من إشبيلية، وهزم جيشه وقبض عليه وقتله.

حضرة المنصور وسلم إليه الجوالق<sup>(١)</sup>. فلما رأى الخليفة ما به اشتد غضبه، واحتدم وجهه بالغيظ، ولكنه لم يستطع إلا أن يقول: «الحمد لله أن كان يفصل بينى وبين هذا الرجل بحر» وعلى الرغم من شدة ألم المنصور لفوز أمير قرطبة، لم يجد بداً من أن يطرئ مهارته وشجاعته، حتى إنه سمي عبد الرحمن: صقر قريش، وكان يقول: «لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوزى الفذ فى جميع شئونه، وعدمه لأهله ونشبهه، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته، ومضاء عزيمته، حتى قذف بنفسه فى لجج المهالك لا ابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المظم، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيته بسياسته، حتى انقاد له عصيهم، وذل له أبيهم، فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قضيته، قاهرًا لأعدائه، حامياً لذاره مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه... إن ذلك لهو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه».

وتوالت بعد هزيمة العباسيين انتصارات للأمير الجديد، فإنه أغرى أهل طليطلة الذين امتنعوا عليه طويلاً، بأن يعقدوا معه صلحاً، وأن يبعثوا إليه برؤسائهم، وما كاد يصل إليه هؤلاء الرؤساء

(١) فى نفع الطيب: وأنفذ بالجوالق تاجرًا من ثقاته وأمره أن يضعه بمكة أيام الموسم ففعل، ووافق أن حج أبو جعفر هذا العام، فوضعه على باب سراقه.

حتى صلبهم جميعاً، وكان رئيس اليمانية شديد الخطر، فمنحه عبد الرحمن الأمان، ثم استهواه إلى قصره وحاول أن يقتله بنفسه فلم يستطع، لأن الرجل كان قوياً شديد الأسر، فدعا إليه بحرسه فقتلوه<sup>(١)</sup>. وبعد ذلك بقليل ثار البربر في الشمال ثورة جامحة، ففضى عبد الرحمن عشر سنين في كبح جماحهم وتذليل شماسهم، وكانت نار الغضب لم تخدم بعد في قلوب اليمانية لقتل رئيسهم، فهبوا للثأر، واغتتموا غيبة الأمير في الشمال، وكانوا يجهلون نشاط الرجل ودهائه ومكره، فإنه بعد أن أطفأ ثورة البربر في الشمال وأذلهم ببث الفتنة بينهم، أخذ يعمل للتفريق بين اليمانية، فخدع البربر الذين كانوا قوام جيشهم، ومناههم الأمانى، فتركوا القتال عند اشتداده، فانقض بجيوشه على اليمينيين فاستأصلهم، وقتل منهم ثلاثين ألفاً، دفنوا جميعاً في قبر عظيم بقى الناس يزورونه مدة من الزمان، ثم تلت هذه المعركة المعاهدة المنذرة بالخطر التى عقدها شارلمان مع ثلاثة من زعماء العرب الساخطين، والتى كادت تدمر الصرح الذى بناه عبد الرحمن بعد جهد وآلام، ولكن هذه المعاهدة لم تتم، وانحل عقدها فى معارك سرقسطة، ورونسفال من غير أن يضرب فيها الرجل الذى اجتمعوا لسحقه ضربة واحدة.

(١) هو أبو الصباح اليحصبى وكان قد ولاه إشبيلية، وحقد عليه عبد الرحمن ما بلغه عنه يوم هزيمة يوسف الفهرى أنه قال: يا معشر يمن؛ هل لكم إلى فتحين فى يوم؟! فقد فرغنا من يوسف والصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا. وقتل عبد الرحمن أيضاً الصميل بن حاتم سيد المضرية.

ومنذ ذلك الحين أخذ الأمير ينعم فيما يشبه السلم بثمرات جهاده وانتصاره، فقد أخضع بعزيمته الفولاذية كل العناصر المعادية له بإسبانيا، وأسقط كل زعيم صلف أصيد جرؤ على أن يستل لحربه سيفاً، وذبح قواد البربر، وأثبت غير منازع أنه سيد الموقف، ولكن ظلماً قاسياً ناكثاً للعهد كظلم عبد الرحمن لا بد أن يجر وراءه عقابه وآلامه، فإن الظالم قد يستطيع إخضاع قومه ولكنه لن يستطيع أن يفوز بإخلاصهم، والملك الذى ينال بالسيف لا يبقى إلا بالسيف، فقد نفر الناس من الأمير الأموى بعد أن تجرعوا مرارة حكمه، وأبى الأمانى من رجال الدولة أن يدخلوا فى خدمة رجل خداع فتاك مثله، وانصرف عنه أنصاره الأولون الذين آزره ورحبوا بمقدمه، حينما رأوا ظلمه صارخاً، وقسوته مهتوكة الأستار، ودبر له المكاييد مرة بعد أخرى أهله الأقربون الذين احتموا بقصره من العباسيين، لما ظهر لهم من عسفه الذى لا يطاق، ففقدوا فى سبيل ذلك رعوسهم<sup>(١)</sup>.

نبت الناس عبد الرحمن فبقى وحيداً محزوناً. هجره أصدقاؤه، ويئس منه أعداؤه فصبوا عليه لعناتهم، ونصب له الحبائل أهله وخدامه.

(١) قتل عبد الرحمن من أقاربه عبد السلام بن يزيد بن هشام، وابنى أخيه عبيد الله بن أبان بن معاوية والمغيرة بن الوليد بن معاوية، ونفى أخاه الوليد وخدامه بدرًا الذى ذلل له الطريق إلى الأندلس.

وقد تكون حروبه الطويلة للقبائل قد أفسدت طبيعته العربية  
السمحه، وقد يكون قد فطر هكذا على أخلاق شرسة لا تلين، فهو  
الآن لا يستطيع أن يندمج كعاداته في زحام شوارع قرطبة، وإذا مر  
بهذه الشوارع فإنما يمر ركباً محاطاً بحراس أقوياء من الغرباء،  
مشتبهاً في كل شيء، ومتهمًا كل إنسان، تنتابه أفكار مظلمة،  
وتزعجه ذكريات الدماء، فكان له أربعون ألف حارس من مرتزقة  
البربر يحمونه من أعدائه الذين سحقهم تحت قدميه، وكان  
إخلاص هؤلاء الحراس المأجورين لمولاهم يعادل بغضهم لجميع  
الأهلين الذين أذلهم سيدهم وألصق آناهم بالتراب.

وقد نظم عبد الرحمن في وحدته هذه القصيدة يناجي فيها نخلة  
نقلها من أرض أجداده وغرسها بالأندلس، لأنه كان يقول الشعر،  
وهو في أبياته يحنو على النخلة في منفاها ويقول:

تبدت لنا بين الرُصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت: شبيهي في التغرب والنوى

وطول ابتعادي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

أدرك الغرض الذى سعى إليه فى ميعة طموحه، فأخضع العرب والبربر، وأعاد إلى الملك عدلاً ونظاماً، ولكنه كسب كل هذا فخرس قلوب رعيته.

فوارحمنا لذلك الفتى الوسيم الذى دخل الأندلس بطلا مقداماً ففاز بطاعة أهلها وإخلاصهم، ثم وارحمنا له وهو يدلف إلى قبره بعد اثنتين وثلاثين سنة، بغيضاً جباراً، يحمى عرشه المملوخ بالدماء بسيوف المرتزقة الذين يبيعون إخلاصهم بالذهب، لقد حكم إسبانيا بالسيف، وعلى خلفائه أن يجروا على هذا السنن.

وقد رأى أكبر مؤرخ للأندلس: «أنه كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك سبيلاً أخرى لتوطيد الحكم بين مشاغبي العرب والبربر، وأنه لم تكن لديه وسيلة لاجتثاث الفوضى إلا أن يقابل هذه الفوضى بالشدّة والعسف، لأن كلا الفريقين لم يعتقد الحكم المنظم». ومهما يكن من شيء فإن استمرار ظلم كهذا يخلق جواً من الحزن واليأس على الرغم من بهجة الانتصارات التى تشع فى جوانبه. وقد أعطانا ابن حيان - وهو مؤرخ قديم للأندلس - صورة لأمير قرطبة فقال:

«كان عبد الرحمن راجح الحلم، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور،

شديد الحدة، قليل الطمأنينة، بليغاً مفوهاً، شاعراً محسناً، سمحاً سخياً، طلق اللسان. وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره، وكان قد أعطى هيبة من وليه وعدوه، وكان يحضر الجناز ويصلى عليها، ويصلى بالناس إذا كان حاضر الجمع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم».

هذا هو بلا شك عبد الرحمن الشاب، قبل أن تجعله المقاومة والدسات قاسياً جافياً كثير الفزع والشكوك، وللقوة دائماً طرق مروعة في عقاب أصحابها.

وكلما مات ملك جبار تساءل الناس: من يخلفه؟ والجواب العام فى مثل تلك الحال هو: ثورة وفوضى. إن العرش الذى يثبت على رؤوس الحراب لا ينتقل فى سهولة من الأب إلى الولد، ومع هذا لم تسقط دولة عبد الرحمن بموت مؤسسها المستبد، وكان من المتوقع أن تثور القبائل المناجزة التى كبح جماحها بمشقة وجهد بعد أن أطلقت من عقالها بموته، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، لأن الرعب الذى غرسه فى قلوبهم كان شديداً، فلم يستطيعوا أن يتخلصوا من هولته، أو لأنهم رأوا فى ولى عهده أميراً محبوباً يتحلى بصفات تضاد صفات أبيه. فقد كان هشام الذى تولى الملك بعده سنة ٧٨٨ م / ١٧٢ هـ، وهو فى الثلاثين من عمره - مثالا لجميع الفضائل. وزاده ميلاً إلى عمل الخير وبذل العناية فى الإصلاح، ما تكهن له به أحد المنجمين من أن ما بقى من عمره لا يزيد على ثمانى

سنوات، لذلك تفرغ الأمير فى هذه المدة القصيرة للاستعداد للدار الأخرى، وكان قصره فى أيام نشأته الأولى يموج بالعلماء والشعراء والحكماء، فأثرت فيه هذه النشأة، والولد كما يقولون أبو الوالد، وكان له من أعمال التقوى والصلاح ما لا يحصر عدًّا، ورأى فى حماه الغاضبون والمضطهدون معقلا وملاذًا، وكان يرسل من يثق به من الوعاظ والدعاة إلى جميع أجزاء مملكته للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعين بالمدن عسسًا لمنع الشجار وارتكاب الجرائم، ورأى أن تقسم الغرامات المفروضة على الأشرار بين الأتقياء الذين لا يمنعهم مطر أو برد من غشيان المساجد، وكان يعود المرضى، وكثيرًا ما كان يخرج فى الليالى العاصفة وهو يحمل الطعام لمريض من الزهاد، حتى إذا بلغ داره جلس بجانب فراشه يراعيه ويرعاه، ثم هو مع كل هذا لم يكن جبانًا ولا زُميلا، بل كان يقود جيشه بنفسه لمحاربة نصارى الشمال، كما يفعل العربى الصميم، ولقبه الناس بالشفيق وبالعدل لسهولة خليقته، ولكنه كان إذا جد الجد، وهددت ملكه مؤامرات أعمامه، ثابت العزم، قاسيًا لا يلين، وزاد فى عدد حرسه من المماليك، فكان يقف منهم على شاطئ النهر ألف فارس لحراسة قصره ليلا ونهارًا، وكان بارعًا فى الصيد، شديد التحرج من الشبهات، سمع بعد أن أعاد بناء قنطرة قرطبة الباقية إلى اليوم: أن الناس يهمسون بأنه إنما أقام هذا البناء العظيم ليسهل عليه الوصول إلى الصيد، فأقسم ألا يعبر القنطرة مرة أخرى، وقد

بر فى قسمه، وقبل أن تمر ثمانى السنوات اختاره الله إلى جواره  
تقيًا نقيًا<sup>(١)</sup>.

وإذا نبت الشر من الخير فإن أعمال هذا الملك الخيرة كانت أكبر  
حافز على إثارة عامل جديد للثورة والعصيان بالأندلس، ونشأ هذا  
الخطر الجديد من السلطة التى وضعت فى أيدي الفقهاء والعلماء،  
وقد سميناهاهم بقساوسة الإسلام، وإن لم يكن هذا الاسم صحيحًا  
- لأن الإسلام لا يعرف هذه الطائفة بالمعنى الدقيق الذى تريده  
المسيحية الكاثوليكية، فليس المسلمون الذين يؤدون الصلاة فى  
المساجد، ويخطبون الناس يوم الجمعة إلا قومًا عاديين، يؤخذون  
من متاجرهم أو غيرها من الأعمال ويطلب إليهم فى أى وقت أن  
يؤموا المصلين، فالدين الإسلامى لا يفرق بين رجل الدين وغيره،  
على أن بالإسلام شيئًا يقرب قليلًا أو كثيرًا مما يقصد من معنى  
الكهنوت، فإن بالممالك الإسلامية دائمًا قومًا تجردوا للدين وخصصوا  
حياتهم به، قد يكونون دراويش لهم مذهب دينى خاص، أو طلاب  
شريعة وفقه، أو أتباعًا لإمام مشهور يتحمسون لمذهبه ويزودون  
دونه، وقد يكونون من حفظة القرآن الكريم أو شيوخًا يلقنون الناس  
العلم، نجد هذه الطائفة فى كل أقطار الإسلام، وهى طائفة يخشى  
جانبها فى كل مملكة، فطلما أظهر شيوخ الأزهر بالقاهرة وطائفة

(١) توفى سنة ١٨٠ هـ.

الصوفية<sup>(١)</sup> بالقسطنطينية والمولوية فى كثير من مدن الشرق - ما للحماسة الدينية من الشأن فى أوقات الاضطراب. واليوم أخذت تظهر هذه النعرة بالأندلس خطيرة منذرة بالسوء.

وتأجج أول عصيان بعد موت عبد الرحمن من حيث لا يرتقب. لم يحدث من المسيحيين، ولم يحدث من قبائل العرب وعشائر البربر، وإنما حدث من أبناء الإسلام المخلصين ... حدث من فقهاء قرطبة. وكان معظم هؤلاء الفقهاء من المتسلمين أو أبنائهم، وقد ذكرنا آنفاً أن الإسبانين أسلموا برغبة وحماسة فأصبحوا كشأن كل داخل فى دين جديد أكثر تعصباً من المسلمين أنفسهم، وكان عبد الرحمن أبعد نظراً وأكثر علماً بالحياة من أن يسمح لهؤلاء الفقهاء - وبخاصة الإسبانين منهم، بنفوذ له وزن أو قيمة، ولكن التقى هشاماً لم ير الخطر الذى كان يخشاه أبوه، ولو رآه ما عده خطراً، فكان يميل إلى وضع ثقته فى رجال الدين المحافظين عليه، المتبعين طريقه، الذين لم ير فى أعمالهم بادرة ميل إلى الدنيا أو حب للظهور، وكان على رأس الفقهاء فى هذا الحين رجل عبقرى المواهب وافر العقل، كان تلميذاً لأحد أئمة المدينة المنورة<sup>(٢)</sup>، وقد

---

(١) أصل الكلمة بالتركية سوخته ومعناها: المحترق، وتطلق، على المتصوف المحترق من وجده وشوقه إلى ثواب الآخرة.

(٢) هو الإمام مالك بن أنس.

تملك نفسه من الحماسة الدينية والطموح السياسي مزيج طالما جر الممالك إلى الخراب، هذا الشيخ هو يحيى بن يحيى الليثي<sup>(١)</sup> الذي رأى فى إخلاص هشام وتقواه فرصة لرفع الفقهاء بقرطبة إلى قمة من القوة والنفوذ لو علم بها عبد الرحمن الداهية لتفزز فى قبره. وكانت الأمور تسير سيراً حسناً ما نالت هذه الطائفة رغباتها، غير أنه فى سنة ٧٩٦ م / ١٨٠ هـ بعد أن انتقل هشام إلى رحمة ربه، طرأ على قصر الخلافة تغير عظيم. لم يكن الأمير الجديد «الحكم» قليل الاهتمام بالدين أو خليعاً مستهتراً، ولكنه كان مرحاً يحب الحياة ويتمتع بها كلما أقبلت عليه، ليس به صفة من صفات الزهد والتقشف، وكانت هذه الأخلاق وأشباهاها بغيضة إلى المتزمتين، فانطلقوا يتحدثون بمثالب الأمير فى زعر وإشفاق ويدعون له بالمغفرة والتوبة، ثم تجاوزوا الحد فسبوه فى وجهه وصبوا عليه اللعنات، ولما يتسوا من إصلاحه تأمروا على عزله، وإجلاس آخر من أسرته مكانه، ولكن المؤامرات خابت، وكان جزاء المتآمرين أن صلب الأمراء الذين اشتركوا فى المؤامرة وبعض الفقهاء المتعصبين، وقد كان يكون مثل هذا كافياً لولا أن الفقهاء عادوا إلى الثورة، فعاد الأمير إلى إطفائها باستئصال مشعلها، ولكن القرطبيين لم

(١) يقال إن أصله من بربر مسمودة، رحل إلى الإمام مالك وأخذ عنه العلم، وانتهت إليه الرياسة فى الفقه والحديث بالأندلس، مات سنة ٢٢٤ هـ.

يرعوا بعد كل هذا، وبقيت مراجل الثورة تغلى فى قلوبهم، ولم يرعبهم ما سمعوه مما أصاب زعماء طليطلة الذين أظهروا العصيان كعادتهم، والذين استدرجهم ولى العهد بالحيلة والخديعة، حتى إذا قبض عليهم أفناهم ذبحًا وتقتيلاً.

بقيت ذكرى يوم الخندق«الذى سميت به مذبحه طليطلة» كابحة جماح المتعصبين والمشاغبين فى قرطبة سبع سنين، ولما نصلت ذكرى ذلك الخندق المخيف الذى قذف فيه بجثث زعماء طليطلة، شرعت الفتنة تطل برءوسها فى قسبة الأندلس، ولم يزد بغض الأهلىن للأمير لأنه أبى أن يلبس الخشن من الثياب، وأبى أن يتراءى بالزهد والتقوى أمام أمته، بل كان يتجه هذا البغض أكثر ما يتجه إلى ممالك الأمير الذين كانوا يدعون«بالخرس» سموا بذلك لأنهم كانوا من الزوج وأشباههم الذين كانوا لا يستطيعون التكلم بالعربية، وكان هؤلاء الزوج لا يجرؤون على السير فى شوارع المدينة إلا جماعات، لشدة كراهية الناس لهم وتحفزهم لإيذائهم، وإذا خرج جندى وحده كان عرضة للضرب أو القتل، وحدث يوماً أن ضرب أحد هؤلاء الجنود بعضَ العامة فتارت ثورتهم جميعاً، وهجموا بقلب رجل واحد على القصر، يقودهم آلاف من الفقهاء الذين كانوا يسكنون الربض الجنوبى لقرطبة، وصاح الشر بينهم وطاشت عقولهم وصمموا على أن يقتحموا القصر على الرغم من حصونه وحراسه، فأطل الحكم من إحدى النوافذ فرأى بحرًا زاخرًا

من الوجوه، وأبصر والدهش يملأ نفسه شدة مكافحة العامة لهجمات فرسانه، ولكنه لم يفقد هدوءه في هذه الساعة المحفوفة بالمخاطر، وتلك ميزة العظماء وشنشنة النسب الكريم، فعاد إلى بهوه، وأمر خادمه الخاص أن يحضر له قارورة الغالية، وأخذ في تودة وثبات يضمخ رأسه ولحيته، ولم يستطع فتاه «يزنت» أن يكتم عجبه من فعل سيده وهو يسمع تهشيم الشعب المفترس للأبواب، فقال: أهذا وقت الغالية يا مولاي؟! ولكن الحكم قاطعه قائلاً: اسكت أيها الغر، كيف تتصور أن يتعرف العصاة رأسى بين بقية الرءوس إذا لم يتميز بريحه العطرة؟! ثم نادى قواده وشرع فى اتخاذ الوسائل للدفاع، وكانت هذه الوسائل غاية فى السهولة وقوة الأثر، فقد أرسل ابن عم له مع بعض الفرسان من طريق خلفية إلى الربض، فأشعل فيه النار، فلما رآها المشاغبون غادروا القصر وأسرعوا فى زعر وفزع لإنقاذ زوجاتهم وأطفالهم من اللهب، فانقض الحكم وحراسه على مؤخرتهم، ووقع العصاة بين قوتين فحطموا تحطيمًا، وجال بينهم «الخرس» يقتلون بالئات ولا يستجيبون إلى توسلاتهم وصياحهم المؤلم بطلب الرحمة، وانتهت الثورة بمذبحة عامة، ونجى الحكم بهذه الضربة القاصمة قصره وسلالته.

وكان الأمير كريمًا، فقبض يده عن الإيذاء بعد انتصاره، ولم يجاوز به الحد، واكتفى بهدم دور العصاة بالربض ونفيهم، فرحل بعضهم إلى الإسكندرية وكانوا نحو خمسة عشر ألفًا غير النساء

والأطفال، وبعد أن أقاموا بها قليلاً أبحروا منها إلى إقريطش (كريت) ورحل ثمانية آلاف إلى «فاس» وكانت جمهرة هؤلاء المنفيين من أبناء الإسبانيين المتسلمين الذين كانوا يرحبون بكل فرصة يظهرون فيها بغضهم لحكم العرب، وترك الفقهاء وهم أس العصيان والثورة بلا عقاب، إما لأن كثيراً منهم من أصل عربى، وإما لمنزلتهم الدينية، وقد جر أحد زعمائهم إلى القصر جرّاً، فصارح الحكم فى حدة غضبه وتعصبه بأنه ببغضه للأمير إنما يطبع أمر الله. فأجابه الحكم جوابه المأثور إذ قال: إن الذى أمرك - كما تزعم - ببغضى أمرنى بالعمفو عنك. اذهب فى رعاية الله.

